تطبيق2: ما هي أثر العوامل الاجتماعية في خصائص اللغة وتطورها؟

يقول على عبد الواحد وافي في كتابه **"اللغة والمجتمع"**: «تتأثّر اللغة أيما تأثر بحضارة الأمة، ونظمها، وتقاليدها، وعقائدها، واتجاهاتها العقلية، ودرجة ثقافتها، ونظرها إلى الحياة، وشؤونها الاجتماعية... وما إلى ذلك. فكل تطور يحدث في ناحية من هذه النواحي يتردّد صداه في أداة التعبير. ولذلك تُعدُ اللغات أصدق سجّل لتاريخ الشعوب: فبالوقوف على المراحل التي اجتازتها لغة ما، وفي ضوء خصائصها في كلّ مرحلة منها، يمكن استخلاص الأدوار التي مرّ بها أهلها في مختلف مظاهر حياتهم.

فكلّما اتسعت حضارة الأمة، وكثرت حاجاتها ومرافق حياتها، ورَقِيَ تفكيرها،وتهذّبت اتجاهاتها النفسية، نهضت لغتها، وسَمَتْ أساليبها، وتعدّدت فيها فنون القول، ودقت معاني مفرداتها القديمة، ودخلت فيها مفردات أخرى عن طريق الوضع والاشتقاق والاقتباس للتعبير عن المسميات والأفكار الجديدة... وهلّم جرا. واللغة العربية أصدق شاهد على ما نقول. فقد كان لانتقال همجية الجاهلية إلى حضارة الإسلام، ومن النطاق العربي الضيّق الذي امتازت به مدنيتهم في عصر بني أمية إلى الأفق العالمي الواسع الذي تحوّلوا إليه في عصر بني العباس، كان لهذين الانتقالين أجلّ أثر في نهضة لغتهم ورقي أساليبها واتساعها لمختلف فنون الأدب وشتى مسائل العلوم.

وانتقال الأمة من البداوة إلى الحضارة، يهذب لغتها، ويسمو بأساليبها، ويزيل ما عسى أن يكون بها من الخشونة، ويكسبها مرونة في التعبير والدلالة (...) إنّ البدوي الذي لم يلهمه شيطانه في مدحه للأمير أحسن من قوله:

أَنْتَ كَالكَلْبِ فِي حِفَاظِكَ للْعَهْـ ـدِ وَكَالتَّيْسِ فِي قِرَاعِ الخُطُوبِ

قد استطاعت قريحته، بعد أن هذبتها حضارة بغداد، أن تجول بمثل:

عيُونُ المَها بَيْنَ الرُّصَافَةِ والجِسْرِ جَلَبْنَ الهَوَى مِنَ حَيْثُ أَدْرِي وَلاَ أَدْرِي.

ومظاهر النشاط الاقتصادي تطبع اللغة كذلك بطابع خاص في مفرداتها ومعانيها وأساليبها وتراكيبها. ومن ثمّ اختلفت مظاهر اللغة في الأمم والمناطق تبعا لاختلافها في نوع الإنتاج، ونظم الاقتصاد، وشؤون الحياة المادية، والمهنة السائدة (الزراعة، والصناعة، التجارة، الصيد، رعي الأنعام... الخ).

وقد تؤثّر هذه المظاهر في أصوات اللغة نفسها، فقد يؤدي نوع العمل الذي يزاوله سكان منطقة ما إلى تشكيل أعضاء نطقهم في صورة خاصة تتأثر بها مخارج الحروف ونبرات الألفاظ ومناهج التطوّر الذاتي.

واللغة مرآة ينعكس فيها كذلك ما يسير عليه الناطقون بها في شؤونهم الاجتماعية العامة، فعقائد الأمة، وتقاليدها، وما تخضع له من مبادئ في نواحي السياسة والتشريع والقضاء والأخلاق والتربية وحياة الأسرة، وميلها إلى الحرب أو جنوحها إلى السلم، وما تعتنقه من نظم بصدد الموسيقى والنّحت والرسم والتصوير والعمارة وسائر أنواع الفنون الجميلة... كلّ ذلك وما إليه يَصبِغ بصبغة خاصة في جميع مظاهرها: في الأصوات والمفردات والدلالة والقواعد والأساليب... وهلّم جرا. وإليك مثلا درجة القرابة التي تربط الفرد بكلّ من أسرة أبيه وأسرة أمّه. فالأمم التي تسير نظمها الاجتماعية على إنزال هاتين الأسرتين منزلة واحدة تقريبا في درجة قرابتهما للفرد تطلق لغتها كلمة واحدة على كلّ من العمّ والخال oncle, uncle والعمة والخالة tante, aunt وابن العمّ أو العمة وابن الخال أو الخالة cousin وابنة العمّ أو العمة أو ابنة الخال أو الخالة cousine. على حين أنّ الأمم التي تفرّق نظمها الاجتماعية بين هاتين الأسرتين في درجة قرابتهما للفرد تختلف في لغتها الكلمات الدالة على أفراد أسرة الأب عن الكلمات الدالة على أفراد أسرة الأم: العمّ، الخال، العمة، الخالة، ابن العم، ابن العمة، ابن الخال، ابن الخالة، بنت العم، بنت العمة، بنت الخال بنت الخالة...»[1]

[1]- على عبد الواحد وافي، اللغة والمجتمع، ص 9، 12.